

10

قصص المبشرون بالجنة

رجل زاهد من
أحباب الله

سأوى العناني



رجل زاهد من أحبّاب الله

(سعيد بن زيد)

هذه هى ساحة الكعبة المشرفة تستعدُّ لاستقبال الحجاج
هذا العام ، كما تستعد لهم فى كل عام ، وهى ذى
الأصنام قد ازدانت وأضاءت من حولها الشموع ..

وها هم أولاء تجار مكة قد ضاعفوا من كميات بضاعتهم
يرتبونها ، ويحسنون عرضها لتستوقف الحجاج ويقبلوا
عليها .. يشترون بعضها لأنفسهم ولذويهم .. لكن أغلب
ما كانوا يشترون كانت قرابين يتقربون بها لألهتهم
الحجرية .. نعم كان هؤلاء يعبدون أصناماً من الحجارة لا
تنفع ولا تضر .. يلقون عليها الثياب الجديدة .. وينحرون
تحت قدميها القرابين ، ثم يتبركون بدمائها ..

كانوا يسجدون لها ، ويبكون بين يديها ، ويسألونها

العون والمَدَد والنجاح والرزق الواسع ..

وسط هذا الصخب والضجيج كان هناك عددٌ قليلٌ من
الناس يتأمل ما يحدثُ ، ويتعجبُ من هذه العقولِ المتناقضةِ
والنفوسِ الحمقاء ..

وكانت عيون هؤلاء تتجهُ إلى عددٍ قليلٍ من الرجالِ
الذين يتحدثون حديثاً آخر .. وينهجون منهجاً مختلفاً ،
ويؤمنون بأشياء أخرى .. هؤلاء هم الأحناف ..

والأحناف هم الذين يعبدون الله على دين أبينا إبراهيم
عليهم السلام ..

فمن هم هؤلاء الأحناف الذين كانوا يعيشون في مكة
في هذا الزمان ؟

إنهم ثلاثة رضى الله عنهم ..

(قسُّ بن ساعدة الأيادي) .

و (ورقةُ بنُ نوفل) .

و (زيد بن عمرو بن نفيل) ..

كان هؤلاء يترغمون بكلمات التوحيد .. ويبشّرون بقرب
سطوعِ شمسِ الإيمان الغائبِ فى هذه الديار وبقرب قدومِ
النبيِّ المنتظرِ .. ويجاهرون بتركهم عبادةِ قومِهِم ، ويتهمونهم
دائماً بالحمقِ والغباءِ .. ورغمِ وحلةِ هدفِهِم فإن سياستهم
كانت مختلفةً ..

كان (ورقةُ بنُ نوفلِ) عاكفاً على قراءةِ الأنجيلِ يدرسها
ويتلوها بحثاً عن حقيقةِ ما يؤمن به .. وهو دينُ إبراهيم ..
وكان (قسُّ بنُ ساعدة) هائماً يبحث عن الحقيقةِ دون أن
يعرفَ الطريقَ إليها .. ومات قبلَ أن يعرفها ..

أما (زيد بن عمرو بن نفيل) فقد أعلنها أكثر صراحة ..
"أعبد رب إبراهيم" ..

كان يجلس مسنداً ظهره إلى الكعبةِ منادياً الناسَ : "يا

معشر قريش ، والذي نفسى بيده ما أصبح منكم أحدٌ على
دين إبراهيمٍ غيرى ... " .

إني اتبعت ملةَ إبراهيم وإسماعيلَ مِنْ بَعْدِهِ وَإِنِّى لَأَنْتَظِرُ
نَبِيًّا مِنْ وَلَدِ إِسْمَاعِيلِ - مَا أَرَانِى أُدْرِكُهُ ..

ثم ينادى عامر بن ربيعة ..

- يا عامر بن ربيعة ..

"إن طالت بك الحياة فأقرئه منى السلام" ..

إذن فقد كان (زيدُ بن عمرو بن نفيل) يدرك على وجه
اليقين قربَ ظهورِ النبی .. حتى أوصى أن يبلغه صديقُه
(عامر) سلامه إليه ..

ولكن .. هل كان أمر (زيد) يقتصر على جلوسه إلى
جوار الكعبة معلنا اتباعه ملة إبراهيم حنيفا .. ومبشراً بنبي
من نسلِ إسماعيل ؟؟ ..

لا .. لم يكن هذا فقط هو فعل (زيد) إنما كان يطوف
بالكعبة المشرفة .. ولم يكن طوافه مثل طواف غيره من
الجهلاء الذين كانوا يتجردون من ثيابهم ويصفقون
ويصفرون وهم ينجون أصنامهم .. بل كان يطوف مسبحاً
مليئاً ..

- لبيك حقاً حقاً .

- تعبداً ورقاً .

- عذت بما عاذ به إبراهيم .

وأسلمت وجهي لمن أسلمت

له الأرض تحمل صخرًا ثقالا

دحاها ، فلما رآها استوت

على الماء أرسى عليها الجبالا

وأسلمت وجهي لمن أسلمت

له المزن تحمل عذبا زلالا

ويحلُّ التعب بالشيخ المهيب الأشيب الشعر واللحية ،
فيجلس مرةً أخرى مسنداً ظهره لجدار الكعبة متطلعا إلى
السماء وقد انهمرت دموعه وهو ينادي ربه ..
- اللهم لو أنى أعلم أى الوجوه أحب إليك لعبدتك
به ، ولكنى لا أعلمه ..

ومما يروى عن (زيد) أنه كان يحول دون وأد البنات ..
وإذا رأى من يريد أن يقتل ابنته .. قال له :
- لا تقتلها وأنا أكفيك مؤنتها .. أو يأخذها ويرعاها حتى
تكبر ..

ويقول لأبيها : "إن شئت دفعتها إليك وإن شئت كفيتك
مؤنتها" ..

وتمضى السنوات بزيد بن عمرو بن نفيل .. هائما مع
أشواقه المؤمنة .. متنقلا ما بين الكعبة وخلاء الصحراء
يبحث عن ضالته المفقودة إلى أن يدركه الموت فى العام

الذى أعيد فيه بناء الكعبة ..

ويترك (زيد) ذرية صالحة مِنْ بَعْلِهِ ..

ابنه (سعيد) .. الذى ورث عن أبيه العزوف عن عبادة
الأصنام ، والابتعاد عن العبث واللغو .. والشعور بافتقار
خيرِ قادم ..

وتمضى الأيام (بسعيد) .. فيتزوج بنت عمه (فاطمة بنت
الخطاب) ، كما تتزوج شقيقته ابن عمها (عمر بن
الخطاب) شقيق (فاطمة) ..

وما إن يسمع (سعيد) أخبار (محمد) ودعوته إلى عبادة الله
الواحد الأحد وهجر عبادة الأصنام حتى تدفعه روحه
المرهفة وإحساسه القويم إلى الذهاب ومعه زوجته إلى
(محمد) ومبايعته على أنه "لا إله إلا الله وأن محمداً رسول
الله" ..

وكان على (سعيد) وزوجته أن يختبئا فى منزلهما يرتلان

القرآن ويتعبدان لله بعيدا عن عيون الكفار والحاquدين ..
وكان (عمر بن الخطاب) صهر (سعيد) وابن عمه من
أشد الغلاة فى اضطهاد المسلمين وتعذيبهم والبطش
بهم ..

وكان (عمر) يومها فى ربيع شبابه فتى قويا حاد الطبع ،
سريع الغضب ، محبا للهو والخمر .. فلما علم بهجرة
بعض المسلمين إلى الحبشة حمل سلاحه ، واتجه إلى حيث
كان محمدٌ يجتمع مع صفوة من أتباعه المسلمين مصمماً على
قتله ..

وفى طريقه إلى محمد وصحبه لقي (ابن الخطاب) رجلا
يدعى "نعيم بن عبد الله" فسأله عن وجهته .. فلما أخبره
عمر سخر منه (نعيم) قائلا :

- أفلا ترجع إلى أهل بيتك وتقيم أمرهم ؟!

فاشتعل رأسُ عمر بن الخطاب غضبا ورجع إلى حيث

شقيقته (فاطمة) وزوجها (سعيد بن زيد) وما إن وصل
دارهم حتى سمع شيئا لم يتبينه .. لكنه أحس أنه كلام لم
يسمعه من قبل ..

ودق (عمر) الباب صائحا .

فارتجف (سعيد) وزوجته ودسا الرقعة التي كان يقرآن
منها .. ودخل عمر هائجا يسألهما عما كان يقرآن ويسألهما
عن حقيقة ما سمع ..

فأنكرا إسلامهما خوفاً من بطش (عمر) ..

لكن (عمر) لم ينتظر حواراً أو إقناعاً .. لكنه أمسك
(بسعيد) فطرحه أرضاً وهو يوسعه ضرباً .. واندفعت
(فاطمة) تبعد أخاها عن زوجها .. فما كان من (عمر) إلا
أن صفعها صفعاً أدمتها ..

هنا استجمعت (فاطمة) قوتها وإيمانها وصرخت في
وجه أخيها معترفة بإسلامها وإسلام زوجها ..

وهذا (عمر) بعض الشيء وطلب الصحيفة يقرأ به ..
وما إن قرأ حتى رق قلبه له ..

واتجه لفوره حيث كان رسول الله وأعلن إسلامه بين
يديه ..

هذا هو (سعيد بن زيد بن نفيل) الذي أسلم (عمر بن
الخطاب) على يديه لما رأى منه قوة وصموداً وتمسكاً بدينه ..
هذه القوة التي جعلته لا يهاب (عمر بن الخطاب) وهو
الذي يعرف .. من هو (عمر) !؟

وكان (سعيد بن زيد) من أوائل من أسلموا .. ويقول
عنه معاصروه : إنه كان بالحق قوالاً ولما له باذلاً ولهواه قامعاً
وقتلاً .. ولم يكن ممن يخاف في الله لومة لائم ، وكان مجاب
الدعوة ..

و(لسعيد بن زيد) مكان بارز في أيام الإسلام وغزواته ،
وكان مكانه دائماً أمام النبي .. يدافع عنه ويدبراً عنه كيد

أعدائه ، ويفتديه بروحه ..

أما فى أيام السلم .. فكان مكانه خلفَ النبى يستوعب
قوله وفعله ، لهذا أحبه النبى عليه السلامُ وخصه بمجموعةٍ
من المهامِ الجليلةِ ..

وكان يقول عنه : "سعيد بن زيد من أحباء الله" ..

عندها بدأ النبى عليه السلامُ التخطيطَ لغزوة بدر أرسل
(سعيد بن زيد بن عمرو) ومعه (طلحة بن عبيد الله) ..
لينظر فى أمر قافلة قريش القادمة من الشام وما إن بصرا
بها حتى عادا سريعا إلى المدينة .. لكن النبى عليه السلام
كان قد خرج لملاقاة قريش فى (بدر) بعد أن وصلتته أنباء
أخرى .. وحزن (طلحة) و (سعيد) لأنهما تخلفا عن الغزو
فى سبيل الله .. فطمأنهما رسولُ الله إلى أن ما فعلاه كان
جزءاً من المعركة وأنهما لم يتخلفا عن تنفيذِ أمره ..

وأعطاهما من غنائم بدر مثل ما أعطى غيرهما ممن

تصدى للقتال ..

ومضت رحلة (سعيد بن زيد) إلى جوارِ رسولِ الله لكنه
كان يتخفى دائما عن الأضواء .. وكان دائما يحب أن يعمل
فى صمت وهدوء ، فلا يشعر بوجوده أحد ..

إلا أن الرسول عرف قدره وبشره بالجنة ضمن من بشر
من أصحابه ..

لم يفكر (سعيد) يوما فى ولاية ولا رئاسة .. ولم يكن له
هم إلا ميادين القتال ..

وعندما عرض عليه أبو (عبدة بن الجراح) ولاية دمشق
فى خلافة صهره (عمر بن الخطاب) بعد أن أبلى بلاءً
حسنا فى معركة اليرموك .. رفض هذا العرض وآثر أن
يظل جنديا إلى أن يرزقه الله بالشهادة .. فكتب إلى قائده
(ابن الجراح) يقول :

"سلام" عليك .

فإني أحمد الله الذي لا إله إلا هو ..

أما بعد ..

فإني ما كنت لأوثرك وأصحابك الجهاد على نفسي

وعلى ما يدنيني من مرضة ربي ..

فإذا أتاك كتابي هذا فابعث إلى من هو راغب إليه منه ،

فإني قادم "عليك وشيكا إن شاء الله تعالى" ..

هكذا كان (سعيد بن زيد) زاهدا في كل منصب راغبا

في كل راحة .. لم يطمع في شيء من الدنيا وهو صهر أمير

المؤمنين وابن عمه ..

لقد شارك في فتوحات كثيرة وغنم مغنم "عديلة" لكنه

لم يركن إلى الراحة ، ولم ييخل بما معه على الفقراء

والمساكين ..

وظل (سعيد بن زيد) جنديا محاربا حتى تجاوز السبعين

من عمره .. وقتها أثر أن يمضي ما تبقى له من العمر قريبا

من رسول الله .. يصلى حيث كان يصلى .. ويستعيد

ذكريات النور الذى كان يحيط بمجلس النبوة ..

وظل مثالا للنبل والتقوى والزهد والشجاعة إلى أن لقي

ربه بوجه كريم ، ودُفن بالقرب من المدينة المنورة فى العام

الخمسین للهجرة ..